مقياس: منهجية وتقنيات البحث التاريخي 1 الأستاذ: عبد الرزاق توميات

السنة الدراسية: 2023- 2024م

محاضرة: العلوم المساعدة لعلم التاريخ

يرتبط علم التاريخ بمختلف أنواع العلوم والمعارف الإنسانية، ومن أجل ذلك فعلى المؤرخ أن يكون مطلعا واسع الثقافة، عالما وعارفا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ، وهي كثيرة ومتنوعة، وسنحاول الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

1. علم الإنسان (الأنثروبولوجيا):

ربما كان هذا العلم من أكثر العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين، ذلك أن علماء الإنسان والمؤرخين يواجهون مشكلات متشابهة في الرأي عند بحثها، غير أن علماء الإنسان يدرسون ثقافة الإنسان البدائي بشكل عام في حين يدرس المؤرخون الإنسان المتحضر، وليس لعلم الإنسان وجود منفصل كالعلوم الطبيعية بل هو موجود من حيث أنه ميدان يلتقي فيه كل من لهم اهتمام بالإنسان، لهذا ظهرت أربعة فروع منفصلة لعلم الإنسان هي:

علم الإنسان الطبيعي: يدرس التطور البيولوجي للإنسان و تغير السلالات البشرية.

علم الآثار: يسعى لاكتشاف طبيعة و ثقافة إنسان ما قبل التاريخ من خلال الكشوف الأثرية.

علم اللغات الأنثروبولوجي: يحلل الثقافات الشفهية والمدوَّنة.

علم الإنسان الثقافي: يدرس الثقافات المعاصرة للقبائل البدائية والشخصيات والعلاقات البشرية.

وبوجه عام يعالج علم الإنسان المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى وانتشار البشرية ومناهج علم الآثار وعلم الإنسان الطبيعي هي نفسها مناهج دراسة التاريخ، مع تعديلات تتطلبها الدراسة المتخصصة، وعلى هذا الأساس فالباحث في التاريخ لا يمكن أن يستغني عن الدراسات الأنثروبولوجية عندما يدرس مثلا التطور الثقافي فى مجتمع ما لكي يسجل حقيقة مراحل هذا التطور ومدى عملية التأثير و التأثر.

2. علم الجغرافيا:

تعتبر الجغرافيا من العلوم المرتبطة بالتاريخ، فالارتباط وثيق للغاية بين التاريخ و الجغرافيا أو بمعنى آخر بين الزمان والمكان، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ،

وهى ذات أثر في توجيه البشر، وبالتالي لها نفس الأثر على سير التاريخ و ذلك تبعا لنوع تفاعل الإنسان مع بيئته و مواجهته لظروفها، ومن هنا على المؤرخ أن يلم بجغرافية المنطقة التي يريد دراستها، والظروف و الظواهر الجغرافية التي تسودها وتؤثر فيها، ولقد بلغ من أهمية الجغرافيا أن ظهرت نظرية لتفسير حركة التاريخ عن طريق الجغرافيا.

ولا يمكن للباحث في التاريخ أن يستغنى عن الدراسات الجغرافية في كافة فروعها مثل الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والبشرية والإنتاج، فالباحث في التاريخ الاقتصادي مثلا عليه أن يعرف مناطق الإنتاج و نوع التربة وأنواع المنتوجات وظروف نموها وموسمها، لأن الباحث سوف يربط ذلك بالسياسة الاقتصادية.

وإذا أراد باحث دراسة التوجهات السياسية لبلد ما فسوف يجد أن الطبيعة الجغرافية تتحكم في هذه التوجهات لحد كبير، فمثلا امتداد نهر النيل في بعض دول شرق إفريقيا يفرض على هذه الدول التي يمر عبرها أن ترتبط بعلاقات بينها لصيانة مصالحهم المشتركة.

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا في تغيير مجرى التاريخ، أن البحر كان السبب الرئيسي الذي أعاق تقدم تيمورلنك بعد أن هزم السلطان العثماني بايزيد الأول في موقعة أنقرة سنة 1402م، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة، وسرعان ما استعادت قوتها وأدت دورا بارزا على الساحة الدولية في مراحل لاحقة.

كذلك ساعدت العواصف الأسطول الإنجليزي على التغلب على القوة البحرية الأسبانية (الأرمادا) سنة 1588م، مما أدى إلى فرض إنجلترا لسيطرتها على البحار وتحولها إلى قوة دولية لا تُضاهى، وكانت سهول روسيا الواسعة وشتاؤها القارس إحدى أهم العوامل التي أدت إلى فشل حملة نابليون بونابرت عليها سنة 1812م وكذلك كان الحال بالنسبة لزحف الجيوش النازية على الاتحاد السوفياتي عام 1941م، التي توقفت قبل أن تصل إلى موسكو بسبب الشتاء القاسي.

وفى السهول الخصبة والوديان كوادي النيل و دجلة و الفرات، قامت أقدم وأعرق الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ الإنساني, أما البيئات الجبلية و الصحراوية فهي بيئات طاردة للسكان تدفع الإنسان للرحيل، فمثلا الطبيعة

الجبلية لبلاد اليونان أدت من الناحية السياسة إلى تكوين دولة المدينة وأدت كذلك إلى هجرة اليونانيين وتكوينهم لمستعمرات خارج بلاد اليونان، إذن فالعوامل الجغرافية المختلفة تؤثر في نشاط الإنسان،كما تؤثر في طباعه وأخلاقه ومزاجه وفي شحذ ذهنه، ومن كل ما سبق يتضح مدى أهمية الجغرافيا كعلم مساعد لدراسة التاريخ.

3. علم الاقتصاد و الاقتصاد السياسي:

هما من العلوم الأساسية التي تخدم دراسة التاريخ، فالعوامل الاقتصادية وتوزيع الثروة بين الطبقات، وكذلك وسائل الإنتاج ونوعه وأسلوب التوزيع للثروة والاستهلاك، كلها عوامل حاسمة ولها دورها في تشكيل نوع الدولة وطبيعة النظم فيها والطبقة الحاكمة و أجهزتها و قوانينها إلى غير ذلك من العوامل الهامة في تفسير التاريخ تفسيرا علميا لفترة معينة أو لمنطقة معينة من تاريخ البشرية، والجدير بالذكر أيضا أن هناك مدرسة فَسَّرت وقائع التاريخ على أساس اقتصادي بحت، ومن ضمن أقوال هذه المدرسة أن تاريخ البشرية كله ما هو إلا تاريخ البحث عن طعام.

ويتضح أهمية هذا العلم من هذا المثال فمثلا إذا كانت الزراعة هي النشاط الأساسي للاقتصاد في بلد ما فسوف نجد أن التقسيم الاجتماعي الأساسي في هذا البلد يتكون من طبقتين هما الملاك و المستأجرين، وسوف نجد أن طبقة الملاك وخاصة الكبار منهم يتميزون في المجتمع و تراهم يمارسون النشاط السياسي و يدخلون في السلطات التشريعية و التنفيذية، ويوجهون سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وهذا يدخل في باب الاقتصاد السياسي الذي يبحث عن النظام الأمثل لإدارة شؤون الدولة حسب الاقتصاد الأساسي لها و القوى الاجتماعية فيها.

4. علم الاجتماع:

يعتبر هذا العلم من العلوم الوثيقة الصلة بعلم التاريخ التي يحتاج المؤرخ إلى الوقوف عليها لتساعده في فهم الأحداث التاريخية، وعلم الاجتماع كعلوم الإنسان يقوم بدراسة شاملة للأفعال والعلاقات الإنسانية، ومن المعروف كذلك أن التاريخ يهتم بدراسة التغير الاجتماعي مثلما يهتم بدراسة التغير السياسي والديني والعسكري أي أنه يهتم بدراسة المجتمع داخل الزمان ومن الأمور التي تهم كلا من علماء الاجتماع والمؤرخين دراسة الطبقة الاجتماعية ومكانها في المجتمع.

وتنشأ طبقة ما نتيجة تفاوت الظروف الاقتصادية بين الأفراد من حيث قدرتهم على الكسب والإنفاق ويهتم علماء الاجتماع بأسس التناقض الطبقي وأنماط السلوك التي تميز مختلف الطبقات وبأنواع التوتر التي تنشأ بين تلك الطبقات وكلُّها مسائل تهم المؤرخ دون شك وتساعده في تفهم المجتمع مجال الدراسة.

وعلم الاجتماع هو العلم الذي يقوم بصياغة القوانين التي تتناول علاقات الناس فيما بينهم ، وعلى أي حال إذا أراد الباحث دراسة تاريخ الحركة العمالية في بلد ما، فإنه يتعين عليه الإلمام بأسس علم الاجتماع، حتى يتعلم متى يقول طبقة العمال أو متى يقول العمال فقط ومتى يقول الوعي الطبقي والثقافة الطبقية، أو متى يتكلم عن الطبقة الاجتماعية، ومتى يتحدث عن القوة الاجتماعية، وهكذا الحال إذا أراد الباحث دراسة تاريخ طبقة الملاك الزراعيين أو طبقة الرأسماليين.

5. علم السكان (الديموغرافيا):

هو أحد فروع علم الاجتماع ومن العلوم الهامة للباحث التاريخي، إذ يتناول دراسة الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي، والتغييرات التي تطرأ عليها زيادة ونقصانا نتيجة لمختلف العوامل، مثل التكاثر أو الوفاة أو الهجرة أو غيرها من العوامل .

ولا شك أن علم السكان بهذه الصورة يعتبر من العلوم الوثيقة الصلة بالتاريخ ودارسي التاريخ، فقد يضطر المؤرخ للرجوع إلى مصادر علم السكان ونتائجه لتوضيح إحدى نقاط بحثه، أو لتفسير ظاهرة تاريخية ذات جانب سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي.

فعلى سبيل المثال يقال أن أحد أسباب قيام الثورة الصناعية في إنجلترا منتصف القرن الثامن عشر قبل فرنسا إنما يرجع ذلك لقلة سكان إنجلترا مقارنة بفرنسا، وحاجة إنجلترا لزيادة الإنتاج لمواجهة الطلب في الأسواق الخارجية في حين أن زيادة السكان في فرنسا كانت تساعد على زيادة الإنتاج لمواجهة الطلب دون الحاجة إلى آلات جديدة تعوض نقص العمال.

6. علم النفس:

يعتبر بفروعه المختلفة من العلوم اللازمة لدراسة التاريخ إذ أن العوامل النفسية تدخل في تفسير بعض التصرفات الإنسانية، لذلك يجب على المؤرخ التزود بالأسلوب العلمي الذي يقدمه له علم النفس، حتى تكون تفسيراته أقرب إلى الحقيقة إذا ما أخذ بهذا المفهوم في التفسير.

فعلم النفس يهتم بدراسة جوانب النفس البشرية، والتاريخ يدرس أفراد مجتمع ما في محاولة لمعرفة الدوافع المختلفة لهؤلاء الأفراد سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو النفسي، لذلك من اللازم أن يحيط المؤرخ نفسه بأهم نتائج علم النفس وتحليلاته ليتمكن من تفسير مثل هذه الدوافع التي تحرك الأفراد وخاصة الأبطال والعظماء .

والحقيقة أن علم النفس قد يحتاجه الباحث في التاريخ إذا لم يستطع تفسير أية حركة سياسية بأسباب اقتصادية أو اجتماعية، وعند ذلك يمكن البحث عن أسرار الحركة في التاريخ الشخصي للزعيم من حيث البيئة التي نشأ فيها والأسرة التي تربى فيها، للبحث مثلا عن عقد نفسية معينة مسؤولة عن حركته ضد آخرين أو معهم وهذا الجانب النفسي في التاريخ قريب من عالم الميتافيزيقا المجهول للناس، وباب الاجتهاد فيه واسع ويجب أن يؤخذ بحذر شديد.

7. علم السياسة:

هو ذلك العلم الذي يهتم بطائفة مختارة من العمليات الاجتماعية التي تؤدي إلى تحديد السياسات واتخاذ القرارات وتدور حول شرح مفهوم القوة أو السلطة في الدولة، أي تبحث العوامل التي ترسم علاقة القوى الاجتماعية بعضها ببعض، وعلاقاتها بجهاز الحكم وفي النهاية ترسم السياسة العامة التي تشكل الظاهرة السياسية مثل البناء الطبقي والمعتقدات الدينية ومذاهب العقيدة السياسية والثقافية، كما يتناول دراسة الجماعات ذات المصلحة التي هدفها السيطرة على الحكم أو المشاركة فيه، كما أن العلاقات الدولية من الأمور التي يهتم بها علم السياسة.

وعلى الرغم من أن المسائل السياسية تعتبر المحور الرئيس الذي دارت حوله اهتمامات المؤرخين إلى حد كبير إلا أنه ينبغي التنويه إلى ضرورة الاهتمام بدراسة السياسة كعلم لأن مجال اهتمام كل من علم التاريخ وعلم السياسة يكاد يكون متشابها إلى حد كبير، ومن هنا فإن فهم أبعاد هذا العلم ومناهجه من الأمور الضرورية للمؤرخ، والقاعدة هنا أن التاريخ يبدأ من حيث تنتهي السياسة ويأخذ المؤرخ مكان السياسي عندما ينتهي دور الأخير، ويخرج من الصورة التي لا يبقى بها إلا المؤرخ والحدث فقط، وطالما ما يزال الحدث السياسي قائما ومتجددا، فلا يمكن دراسته تاريخيا حتى ينتهي الحدث، ويغلق الملف علامة على انتهاء فترته، هنا فقط يمكن دراسته تاريخيا.

8. علم الخطوط:

لكل عصر خط يميزه ولغة تميزه يتطور عبر الزمن، ويبدو بعضها أحيانا مثل الطلاسم لا يمكننا فهمها، وقد ظهرت أهمية هذا العلم عندما استطاع المستشرق الفرنسي شامبليون فك رموز الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) بعد الحملة الفرنسية على مصر، وباكتشاف رموز تفسير تلك الكتابة، عثر العلماء على الكثير من الحقائق المتصلة بالحضارة الفرعونية.

9. علم الأختام والرُّنوك:

تتصل الأختام بالوثائق، وتمهر بها المراسلات الرسمية بين الحكام، وهي ذات أشكال مختلفة تصنع من الشمع أو المعادن المختلفة، فدراسة الأختام ضرورية لدراسة تاريخ فترة معينة لاستنتاج الكثير من الحقائق.

أما الرنوك فهي العلامات المميزة للحكام والممالك والأسر، تظهر على الأختام والدروع والأزياء العسكرية والرايات والأعلام، لتميزهم عن غيرهم، وهي ذات دلالات، ومعروفة منذ القدم، اختلفت أشكالها (طيور، حيوانات كاسرة، فيلة...)،وتفيد في معرفة وإثبات صحة مرحلة من المراحل التاريخية أو عصر معين.

10. علم اللغات:

من العلوم التي لا بد للمؤرخ التزود منها، فمن الضرورة الإلمام باللغات القديمة أو الحديثة، فالترجمة غير كافية، ومن الأفضل الرجوع إلى المؤلفات بلغاتها الأصلية، وبدون ذلك لا يمكن للباحث أن يقطع شوطا في البحث التاريخي.

11. بعض العلوم المساعدة الأخرى:

هناك مجالات للإبداع الإنساني يمكن أن تفيد باحث التاريخ غير العلوم السابقة الذكر، مثل ألوان الآداب والفنون المختلفة، فالأدب مرآة العصر وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، ويفصح عن دواخل البشر ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم الواقعية التي قد لا ترد في المصدر التاريخي، ولعل أوضح دليل على ذلك هو تلك الدراسات التي يقوم بها المشتغلون

بالأدب عن الاتجاهات السياسية و الوطنية في شعر أحد الشعراء أو الأبعاد الاجتماعية و السياسية في الرواية عند أحد الأدباء.

في الواقع يمكن أن نرصد الكثير من وقائع أو حوادث التاريخ في قصيدة شعر انفعل صاحبها بالحدث فأخرج انفعاله على شكل قصيدة وقد تكون أكثر بلاغة وأعظم فائدة مما لو كتبت في مصدر لأن القصيدة تعبِّر بلا زيف عن الحدث وتسجل بوضوح انفعال عامة الناس به، فالمصدر يمكن أن يوجز في ذكر الحدث أو لا يكتب الحقيقة أو يقلل مما حدث نتيجة لاعتبارات كثيرة، والإلمام بنواح من فنون الرسم والتصوير و النحت و العمارة والآثار والنقود المعدنية (المسكوكات) والوثائق الخاصة بعصر ما، تساعد كثيرا على فهم تاريخ ذلك العصر، فهذه الفنون مثلها مثل الأدب تعتبر مرآة للعصر تعكس طريقة حياة أهله.

ملاحظة هامة: اكتفينا بوضع محاضرة واحدة، وبالتالي فالطلبة معنيون بالاطلاع على هذه المحاضرة فقط.

تمنياتي لكم بالتوفيق والسداد